تصاوير عربية واسلامية

Peintures et Images islamiques

١ — توطئة

كل من وقف على التاريخ في عهد الجاهلية وبعدها ، يعلم ان العرب سلفنا كان يعنى بالتصاوير والتماثيل والنقوش على اختلاف انواعها . كما يتحقق ذلك من قرأ تاريخ الكعبة وما كان فيها من الاصنام والاوثان والصور والدمى .

وبعد ذلك جاء الاسلام فلم يمنع بناتا التصاوير بل حظر ذلك في المجسمات منها لئلا يغوى الناس بها : ثم جاء المتعصبون بعد العصور الاولى فمنعوا كل تمثيل مخلوق حي لسوء فهمهم بعض الاحاديث . وإلّا فان عهد العباسيين يشهد على ان المصورات كانت تزين قصورهم ، ولاسيما ما كان قد بني منها في سامرا (راجع مقالة في هذا الموضوع ادرجت في هذه المجلة ٢ : ٥١٥ — ٥٢٠)

والمسلمون في ايران والهند وديار الصين بقوا محافظين على رسم التصاوير الى عهدنا هذا . اذ لم يروا في الاحاديث « الصحيحة » ما ينفي اتخاذها (١) وقد بنى ابناء العرب بجمع كل ما يتعلق بالتصوير والتمثيل والنحت والرسم والنقش

---

(١) وقد شاهد صديقنا الباحاثة وصف غنيمة في زيارته كرمانشاه بعض الرسوم التمثيلية الاسلامية ووصفها في مجلة المقتطف ج ص : ٢٦٠ في الجزء الصادر في اكتوبر سنة ١٩٢١ ودونك ملخص ما قال :

ومما رايته قطعتان من الذهب الخالص الشكل اتخذهما الايرانيون زينة لكتف (اي بازبندا) وعلى وجه كل منهما صورة من البناء ثالثة . الواحدة تمثل الشاه طهماسب ، والثانية محمد علي شاه . وورآء كل من هاتين الصورتين وردة من البناء ابتداء اما الوان النقش وتتمة الصناعة فحدث عنها ولا حرج فما ان الحليتان اذا طرفتان من طرف الصناعة القديمة .

وفي جانب بيت الامام تكيه يقال لها في كرمانشاه « حسينية » وفي صدر جدارها صور اربعة من الملائكة وهي نائتة متخذة من مادة كالجص .

هذا والايرانيون يحترمون النقش ويجلون التصوير ، اذ رايت صورا عديدة تمثل قتل الحسين وموت فاطمة الزهراء وفي يوم ذكراها ترى الايرانيون يطوفون الشوارع وهم ينتحون ندبا الاهاني يحملون ذكراها ولغة العرب

حتى اننا اذا اردنا ان نرى طائفة من هذه الاعمال مجموعة في مكان لاضطررنا الى ان نذهب الى ديارهم لنشاهد فيها ما يزين متاحفهم ودور الآثار عندهم .

ولقد سعى احد الروس قبل الحرب الى جمع نفائس عديدة من بدائع الفن العربي وزين بها قصره ، إلّا ان الحرب المشؤومة جاءت ففرقت وبددت وحطمت واتلفت شيئاً كثيراً مما يدخل في هذا الباب ، حتى انه ليموت الآري امثالنا قبل ما يسمع او يقرأ ان لم يكن قد شاهد بنفسه شيئاً من تلك الفظائع الهائلة .

فلقد كان عندنا مثلاً خزانة عامرة بالمصنفات من مخطوطة ومطبوعة من مصورة وغير مصورة ، ولما سقط بغداد عث الجهلة بتلك الفرائد والنفائس فمزقوا شر ممزق كل كتاب مصور مهما كانت تلك الصور .

كان عندنا من جملة المخطوطات كتب نبات وحيوان وطب وكيمياء فيها رسوم بديعة منها ملونة ومنها غير ملونة فاتلفت كلها عن آخرها .

كان عندنا كتب فلك وهندسة وتاريخ وبلدان وحساب يزينها مختلف الرسوم فلم يبق منها السفلة ورقة بل احرقوا كتاب حياة الحيوان الكبرى المطبوع في ايران وكان مصوراً ، واحرقوا معه كتاب الهندسة لاقليدس وكتاب عجائب المخلوقات وزيج الصابي ، لانه كان فيهما بعض الرسوم الهندسية او بعض الاشكال العلمية .

هذا ما رأيناه باعيننا وشاهدناه بنفسنا مع غيرنا وهو امر لا يخفى على كل بغدادي . وقد وقع ذلك في الـ ٧ من آذار سنة ١٩١٧

وليس مرادنا هنا ان نبكي جرحاً كلا يندمل مع الزمان ، إلّا انا اردنا ان نبين ان الناس على اختلاف طبقاتهم قد يكون فيهم جهلة ، والغالب بينهم انهم يقدرون اعمال السلف . ولهذا اردنا ان نذكر هنا ما كان قد جمعه احد الافاضل من الروس من تراث المسلمين ووقفنا عليه في مجلة مجمع العلماء الروس في لننغراد واهدانا اياها صديقنا الخطاوس كراجكوفسكي والقاة السيدة ف. كراجكوفسكايا . وقد لخصها لنا صديقنا المحبوب الكرنل أ. آ. فرتسكيو مترجماً اياها من الروسية وهذا زبدتها :

٢ — عروض كتبة اسلامية تراى في دار التحف الشبه وكنيف

طالعت في مذكرات لجمعية المستشرقين المطبوعة في لننغراد ، والتي نشرها

مجلس العلوم لاتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية ، مقالة ادرجت في الجزء الذي برز في شهر آب من سنة ١٩٢٤ وهي تصف لنا عروضا فنية اسلامية مختلفة الانواع . وموشية برود تلك المقالة السيدة ف . ا . كراچكوفسكايا وهذا ملخص ما وجدته فيها :

اقيمت صاحبة المقال مستشرقة بارعة ، انقذتها دار التحف الوطنية المعروفة بمتحفة المنسك في لننغراد لتبحث عن الفنيات في كييف ، فوجدت فيها نفائس اسلامية كان صاحبها في سابق العهد رجل اسمه م . خانتكو M Khanenko وكان مستشرقا وجماعة آثار ثم نزعتها من ايديه الحكومة الروسية الحديثة مع الدار التي كان يسكنها وجعلتها من ممتلكات دار التحف والفنيات في كييف .

تلاحظ الكاتبة ان تلك العروض غير منسقة تنسيقا علميا او فنيا بل خلط بعضها ببعض وفيها اشياء مختلفة الجنس وقد كومت تكويما في غرف صغيرة هي خزائن لها وواقعة على طول حيطان الدرج ، ويظهر من حالتها الحاضرة انها تأذت كثيرا في الدعوى التي اقيمت على صاحبها لتنزع من ايديه فتكون ملكا للقوم الروسي .

ان السيدة كراچكوفسكايا تصف ثلاث طوائف من عروض الفن وهي :

١ — عروض من القلز او النحاس
٢ — عروض من الفخفوري او القاشاني
٣ صور منظمة [اي دقيقة الرسم والتصوير]

٣ — وصف عروض القلز او النحاس

تصف الكاتبة قراقير [جمع قرقار Girrafe] وجرارا وطسوتا وقماقم وشماعد الى غيرها وكلها من القلز [البرنز] او النحاس . ومن الاسف ان تاريخ هذه الادوات مجهول ولا يمكن ان يعرف على التحقيق سنة صنعها بل يمكن ان يتصورها تصورا يحملنا على ان يعرفها من باب التقريب ، بمقابلتها على ما يرى من نوعها في دار تحف المنسك في لننغراد . واغلب هذه الادوات فارسية الاصل ومن طرفها جرة من قلز او شبه يظن انها من المائة الثامنة للميلاد وقد نقش عليها رسوم هندسية متبارزة كل البروز

٤ — وصف عروض من القاشاني

هذه الادوات هي قراقير وجرار وطاسات وآجر الى غيرها وكلها نماذج مختلفة الطرز والعصر . وبينها طوائف تتميز بعضها عن بعض كل التميز نذكر منها ما يأتي :

أ — « خزفيات من سمرقند » في هذه الطائفة لا يرى إلا كسر من آنية وآجر وطلاؤها اصفر او اخضر مع رسوم تقرأ لانها حروف بديعة الخط والاشكال الهندسية .

ب — « خزفيات اندلسية مراكشية » في هذه الطائفة ترى اوعية مختلفة وصحون وقصاع وصراحيات الى غيرها وقد صنعت في بلنسية [الاندلس] في المائة الخامسة عشرة .

ج — « خزفيات طاغستان » تحتوي على صحون وجرار وآجر وماشاكلها وطلاء اغلبها اصفر مع رسوم هندسية وسطور مختلفة التعاريج ودوائر محكمة الصنع وقسي متقنة النقش وذوات زوايا عديدة بديعة الوضع .

د — « خزفيات عصر الشاه عباس » جرار طويلة العنق وضيقتها . وطاسات وكسر آنية ذات طلاء لماع وتزيينات تمثل نقوشا عربية وسعفا ولونها في الغالب ازرق .

ه — « بلاط ملون وملمع » في هذه الطائفة عدد عديد من البلاط المربع الملون الملمع وهي تعود الى شعبتين مهمتين من معامل الخزف وهما

معامل ري من المائة الثالثة عشرة للمسيح .

وتحتوي على بلاط مربع طلاؤه لماع مع رسوم بيضاء تمثل حيوانات مختلفة مثل ثعالب وذئاب آوى وغزلان وطيور .

وبين هذه البلاط ما عليه تاريخ صنعها فقد وجد على بعضها ما هذا نصه بحرفه : « في صفر سنة اربع وعشرين وستمائة » .

معامل سلطان آباد من المائة الرابعة عشرة :

بلاط مثمن الزوايا وطلاؤه ازرق فيروزجي ورسومها بيضاء في الغالب وتمثل طيورا من جنس السيمرغ [العنقا] المذكورة في حكايات الجن عند الايرانيين .

و — ﴿ خزفيات حاتم ﴾ هذه الطبقة من الخزفيات الفارسية تعرف بهذا الاسم منذ عهد مديد لانه قد كتب على كل قطعة منها «حاتم» وفي هذه الطائفة نموذج هو طاسة وعلى ظهرها دائرة وكله بالطلاء الاصفر على قعر ازرق نيلي . وفي بطن الطاسة صورة ديك بين كومتين من الزهر مع اسم العامل وهو «حاتم» وقد كتب كتابة جلية . إلّا انه لا يعرف تاريخ صنعها ولا محل صنعها .

ز — ﴿ خزف بمينا ﴾ اسم هذا الخزف مأخوذ من الالوان المتألقة التي يزهو بها والتي تعجب عين الناظر اليها . وكثير من هذه الادوات موصوفة وصفا حسنا دقيقا . واغلبها قد كسر ثم لئم . ومن هذه القصاع [الكاسات] ما هي حسنة التصوير والنقش كثيرة الالوان بين اسود حالك . وابيض بقق . واسمر ادكن . وبنفسجي زاه . واحمر قاني . وارمد اربد . واصفر فاقع . ووردي جنيذي . وهي قصاع مطلية بطلاء ازرق فيروزجي وعليها تصاوير بديعة كثيرة الالوان تختلف بين اسود وابيض واسمر وبنفسجي واحمر واربد واصفر وورديّ الى غيرها . وقد صور عليها رجال فعود قد تزهروا وبعض شجر اشجار غياض واوهار غرار .

ح — ﴿ خزف سلطان آباد [من المائة الثالثة عشرة] ﴾ لهذه الطائفة من الخزف امثلة مختلفة فيها قصاع مستطيلة الشكل او مخروطة مع قعور حلقية الشكل وطلاؤها ازرق لازوردي والنقش ورديّ فاتح واحمر آجري على اشكال هندسية وخطوط ودوائر ومشتبكات وبعض الاحيان ازاهير خيالية . وبين تلك القصاع قصعة تاريخها بحروف عربية هكذا « سنة ٦١٢ »

ط — ﴿ خزف من عبد المماليك ﴾ هذا الخزف آت من [illegible] خزفيات في اخربة الفسطاط [مصر القاهرة] . لم نجد في هذه المجموعة إلّا كسر قصاع وجرار . وهي كافية لتطلعنا على مزاياها الخاصة بها . دهانها احمر ونقوشها بالاصفر والازرق والاخضر وفيها خطوط عريضة ومشتبكات ونقوش عربية اشكال هندسية .

٥ — المجموعة الثالثة: الصور المنمنمة(١)

ليس في متحف كيف إلا احدى عشرة صورة منمنمة اسلامية . والسيدة كراجوفسكايا تصفها ادق الوصف ودونك بعض هذه التفاصيل :

ي — ورقة منزوعة من ترجمة عربية : « في المادة الطبية » المنسوبة النص الاصلي الى ديسقوريدس . وقد رسمت في سنة ٦١٩ هـ وناقشها عبداللة ابن فاضل . وهذه الصفحة تبين لنا كيفية التقطير في محل احد الاطباء . وقد مثل الطبيب ومساعده باحسن صورة وكذا كل عن اداة التقطير فانها بديعة الصورة وتحتها هذه الاسطر بالحرف العربي .

« شراب النونيون »

« خذ منه اثنين قدرهما واجعلهما في ثلاثة ارطال عصير ثم ارفعه وهو موافق لوجع المعدة وان به ارجاف من ركض جيد او دفع سفينة . هي . »

وقد لاحظت الكاتبة ان كلمة «هي» في آخر العبارة مقطوعة من انتهى وطرز المنمنمة هو من الطرز البغدادي في المائة الثالثة عشرة للميلاد .

ك — ورقة منزوعة من نسخة من الشاهنامة . والمنمنمة تبين قدوم رستم بزي بائع ملح في قصر سيند . وفي الصورة ستة اشخاص واربعة جمال وقلعة ومنظر ضاحية وهناك ازاهير وحشائش وكلها متقنة الصنع حسنة الالوان زاهيتها وطرزها طرز بخاري في المائة الخامسة عشرة للمسيح .

ل — صورة منزوعة من نسخة من الشاهنامة وفيها منمنمة تصور حرب رستم للديو (الجني) الابيض . يرى البطل الفارسي لابسا درعا وعلى رأسه خوذة مريشة وهو يدخل خنجرة في بطن الديو . وفي اسفل الصفحة اسم المصور وهو « بهزاد » من بخارى في المائة دام « والعبارة عوسة هذه حروفها : « عمل بهزاد بلا شبه »

م — صورة منمنمة لاحد مصوري الفرس في المائة السادسة عشرة وموضوعها رجل وامرأة جالسان على وثاب في حوش قائم في بستان وورا

(١) المراد بالصور المنمنمة: الصور الدقيقة الصنع والكلمة مشتقة من منم الشيء اي زخرفه ونقشه وزينه كما ان الوشي والكلمة ترجمة على ما في كتب اللغة وتقابل Miniature

ل ع

هذين الشخصين اشجار سرو وبجانبها اشجار لوز مزهرة .

ن — صورة منمنمة بديعة الرسم ودقيقة تبين للناظر معراج النبي العربي راكبا البراق وحوله ثمانية من الملائكة [وفي الاصل الروسي لم تذكر كلمة ملائكة لان هذا الاسم في هذا العهد ممنوع وقد وضع بدلها «جن باجنحة»] وقد أطرت الصورة باطار من ازهار وكلها بماء الذهب والازرق الغامق والطرز طرز المصورين الفرس في المائة السادسة عشرة للميلاد ويظن انها من صنع المصور ميرك .

س — صورة محكمة الرسم كثيرة التفاصيل ويرى فيها معسكر في موطن جبلي والاطار محكم ملون بخمسة الوان مع نقوش عربية ذات ازاهير وورق . وهناك خمسة عشر شخصا مع عدة حيوانات . وتفاصيل الثياب والخيم والطنافس الى غيرها دقيقة الرسم . ونقاشها قد احتذى مثال مصورين فارسيين شهيرين من ابناء المائة السادسة عشرة للميلاد وهما محمد ومير سعيد علي . ولعل النقش كان في اواخر المائة السادسة عشرة .

ع — صورة منمنمة تمثل شابا قويا ذا ثياب ثمينة وهو واقف ويده اليمنى اداوة للشرب ووراءه منظر ضاحية فيها صفصاف وعمشق وزهر وفي اسفل الصورة هذه الكلمات : «رقم كمينه رضا عباسي سنة ١٠٣٧ » ولهذا النقاش صور عديدة في متاحف مختلفة .

ف — صورة منمنمة تمثل اسدا مضطجعا بجانب شاب جالس على الارض وفي اسفل الصورة هذه الكتابة نذكرها بحرفها :

«هو رقم كمينة افضل الحسيني باتمام رسد سلخ جمادي الاخر سنة ١٠٥٤»

ولهذا المصور من اهل المائة السادسة عشرة للميلاد تصاوير عديدة في متاحف مختلفة .

ص — صورة منمنمة تبين لنا شابا من الشرفاء وقد لاقى اثنين من الدراويش الشيوخ في ضاحية موشاة بالازاهير ووراء ذلك جبل صخري القوام واشجار متنوعة . ويظن ان راسمها فارسي اسمه محمد علي من القرن السابع عشر للميلاد .